القرآن دعامة الوحدة بين العروبة والإسلام
يجب أن يأخذ القرآن المكانة الأولى في الدراسات الجامعية .

للدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

استاذة كرسي اللغة العربية وآدابها
(جامعة عين شمس)

1) التلازم او الارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ليس فى حاجة الى جديد يقال ، بعد الذي شهد به الواقع التاريخي من ان اللغة العربية تدين بحيويتها وبقائها وسعة انتشارها ، الى نزول كتاب الاسلام بها ، فانتشرت معه حيثما اظل لواءه تلك الاقطار التي اعتنقت الاسلام دينا ، واستبدلت بلغة كتابه لغتها القديمة .

فالقضية من هذه الناحية ، غير مطروحة للبحث والنظر ، الا ان تكون فى حاجة الى التفسير التاريخي لحركة انتشار العربية بانتشار الاسلام ، فى المنطقة المعروفة بالوطن العربي الاسلامي ، حيث نرى نحو مائتي مليون عربي من وادي الرافدين الى اقصى المغرب والسودان ، تربطهم وحدة اللسان بما تعني من وحدة الفكر والوجدان ، الى جانب الروابط الاخرى من وحدة العقيدة والتاريخ والمناخ المادي والمعنوي .

هذه الامة بدات بالاسلام تاريخها المشترك واخذت منه لسانها الواحد ، ولقد عاشت شعوب المنطقة نحو الف عام قبل الاسلام ، خاضعة للحكم الروماني او اليوناني او الفارسي ، وحاول الغزاة ان يفرضوا عليها عقائدهم ولغاتهم وقومياتهم ، لكنهم خرجوا منها جميعا لم يتركوا وراءهم قومية رومانية او يونانية او فارسية .

وجاء الاسلام فتم له فتح هذه الاقطار فى اقل من قرن ، وترك لها حرية العقيدة واللسان ، فلم تلبث ان اعتنقته دينا عن طواعية واختيار ، ثم بدات تتعرب من الجيل الاول بعد الفتح ، فلم يمض جيل او اثنان حتى تم تعربها ودخلت فيما يعرف فى التاريخ بدور العروبة الصريحة .

وعن طواعية كذلك ، تخلت عن لغاتها الاولى ، لهذه اللغة العربية ، لغة القرءان ، كتاب دينها .

لقد كان لمصر مثلا لغتها القومية قبل الفتح الاسلامي ، ثم لما اسلمت بدات من عصر الفتح تتعلم لغة دينها . وتشهد وثائق من البردي ــ فى دار الكتب بالقاهرة ومكتبة البرتينا فى فيينا ــ بأن محاولة التعرب اللغوي بدات مبكرة ، اذ نجد نصوصا عن عصر الفتح باللغتين المصرية والعربية معا ، ثم نجد نصوصا عربية خالصة من الرسائل والمعاملات التجارية بين افراد الشعب .

ولا مجال للقول بأن المصريين انما تعلموا العربية لمجرد كونها اللغة الرسمية ، فلغات الغزاة قبل الاسلام كانت لغات رسمية ، وظلت اللغة المصرية معها لسان الشعب لم يتخل عنها للغة اجنبية .

* * *

والعربية لا تدين للاسلام بانتشارها فحسب ، ولكنها تدين له كذلك بكل علومها الاصيلة التي نشأت اساسا لخدمة كتاب الاسلام : فمع اتساع الدولة الاسلامية واختلاط الالسن والثقافات وفشو العجمة، نشطت حركة الجمع لتراث الفصحى ، فى القرن الثاني الهجري ، قصدا الى حماية لسان الامة ولغة كتاب دينها . ومن هذا التراث الاصيل صنفت معاجم اللغة لخدمة الفاظ القرءان ، ووضع علم النحو واللغة لتوجيه اعرابه ، وصنفت كتب البلاغة لمعرفة اسراره فى التعبير والبيان كما الفت علوم الاسلام باللغة العربية : دونت اصول الفقه والشريعة وكتب الحديث والتفسير ، والسير والتاريخ والبلدان ، والفلسفة الاسلامية. والى العربية ترجم تراث الفكر والعلوم القديمة ، وبالعربية الفت كتب العلوم من طب وكيمياء ورياضيات وفلك...

واكثر الذين صنفوا هذه الذخائر التي ملأت دور الكتب الاسلامية من نيسابور الى فاس وقرطبة ، كانوا من الشعوب التي تعربت بعد الاسلام ، لا يقتصر ذلك على العلوم الطارئة فحسب ، ولكنه يتجاوزها الى صميم علوم العربية والاسلام .

2) ولا اظن ان الوعي الاسلامي فى عصرنا او فى اي عصر مضى ، كان يقوى او يضعف بما يعتري اللغة العربية من قوة او ضعف . بل الصحيح انها التي تتأثر بالوعي الاسلامي قوة وضعفا . ومهما تختلف على تفاوت الوعي الاسلامي بين قطر وآخر من اقطار الوطن العربي ، فالذي لا ريب فيه ان **وجود القرءان الكريم قد كان حارسا لقدر من هذا الوعي** لم يخذل الامة فى عصور محنتها ، وبفضله بقيت العربية تتحدى ذرائع الغزو .

ويجب أن نفرق هنا ، بين الوعي الاسلامي وبين المستوى الثقافي او العلمي للشعب : لقد امتحنت هذه الامة بالغزو الصليبي والاعصار التتري ، فكان لها من الوعي الاسلامي ما حرس وجودها . ثم لما غشيها الحكم العثماني فشت فيها الامية حتى اسلمها الى الاستعمار الذي تقاسم تركة الرجل المريض ، كان وعيها الاسلامي وحده ، هو المشعل الذي اضاء مسراها فى غشية المحنة ، وقاومت به عوامل التذويب والادماج والموت ، وخاضت به معارك التحرير الباسلة .

كان القرءان هناك فى ذلك الليل الطويل ، كتابا للاميين ينسخ اميتهم بكلمات الله . وفى المدرسة القرءانية تلقوا زاد وعيهم ، ومن ثم بقيت اللغة العربية فى كتابنا الاكبر ، متصلة بالوجدان العام للامة ، على تتابع العصور والاجيال ، رغم غشية الامية وضراوة الغزو الاستعماري لميادين الثقافة ووسائل الفكر واجهزة الاعلام .

وبقدر ما للقرءان الكريم من نفوذ على الضمير الشعبي ، كان له **الدور القيادي فى وحدة هذه الامة العربية** من اقصى المشرق الاسيوي الى اقصى المغرب الافريقي ، يلتقي ابناؤها فكرا ووجدانا ولسانا ، عبر الحواجز الفاصلة والاسوار العازلة .

من هنا قلت واقول ان **الوعي الاسلامي هو الذي يحمي اللغة العربية** حتى فى الاقطار التي ضري فيها الغزو الفكري ، وهو الذي يرهف ضميرها القومي ويشحذ نضالها لتحرير لسانها وحماية وجودها ، وليس الوعي هو الذي يتأثر باللغة العربية قوة وضعفا، فهناك اقطار يتألق فيها الوعي الاسلامي رغم ضعف اللغة العربية فيها ، وهناك اقطار لم يسرق المستعمر لسانها وتعد من مراكز اللغة العربية نشرا وتاليفا ، مع فتور الوعي الاسلامي فيها .

3) اما فى خصوص مدى تاثير الفكر الاسلامي، عن طريق لغة القرءان ، فى اللهجات او اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية فمبلغ علمي ان هناك فى الاقطار الاسلامية غير العربية ، **مراكز قوية لنشر اللغة العربية ، معتمدة اكثر ما تعتمد ، على القرءان الكريم** . واذكر منها على التحديد ، **الهند واندونيسيا وايران وتركيا** ، حيث اعلم ان لعلماء الاسلام فيها دراية بالعربية ونشاطا سخيا فى خدمتها ونشرها . وجامعة حيدر اباد الاسلامية تنهض بعبء جليل فى خدمة اللغة العربية بكتاب الاسلام، وجمعية علماء الاسلام فى تركيا، لها نحو سبعين فرعا فى انحاء البلاد التركية ، واكاد اقول ان مدارس القرءان فيها ، وهي تبلغ بضع مئات، توشك ان تحدث تطورا بالغ الاثر ، فى حياة الاسلام والعربية بتركيا .

4) العربية واللهجات المحلية

وقد تابعت الاتصال باللهجات المحلية فى مصر وفى سائر اقطار الوطن العربي . واقرر هنا ان **هذه اللهجات لا تعدو ان تكون لهجات عربية تاثرت بعوامل صوتية واقليمية** . ونحن نبالغ كثيرا فى تصور هوة سحيقة بين هذه اللهجات وبين الفصحى ، مع ان **اللهجات غنية بالالفاظ الفصحى** ، وقد آن لنا ان نكف عن نظرة العداء وفكرة الخصومة بين العربية ولهجاتها الاقليمية ، فنقدر ان ظاهرة الازدواج اللغوي ظاهرة طبيعية ، وان اللهجات العامية ، لهجات عربية وليست

لهجات لغات اجنبية . وقد تأثرت كل لهجة بعوامل حتمية اختلفت بها طريقة النطق والاداء ، ودلالات الالفاظ ، لا بين قطر وآخر فقط ، بل بين اقليم واقليم من القطر الواحد . نحن فى مصر مثلا ، تختلف لهجة الصعيد عن لهجات الوجه البحري ، ولهجة البوادي عن الثغور ، ولهجة الريف عن الحضر . ويرجع ذلك الى عوامل تاريخية واخرى اجتماعية : فمع الفتح الاسلامي هاجرت قبائل عربية شتى الى مصر واستقرت فى مناطق مختلفة ، فتركت كل قبيلة اثر لهجتها على اللهجة المحلية للمنطقة التي استقرت فيها. ومع الزمن تأثرت لهجات المواصم والثغور بالجاليات الاجنبية فاخذت بعض الفاظها وعربتها ، على حين بقيت لهجات القبائل العربية فى المناطق البعيدة نسبيا عن الاختلاط ، كالريف والبادية والواحات دون ان يبلغ الامر بلهجات المواصم والثغور ، الخروج عن ان تكون لهجات عامية فى العربية ، ودون أن يمس الموقف جوهر الوحدة اللغوية التي تقوم اساسا على الفصحى ، لغة القرءان الكريم ، بل تبقى هذه **الفصحى اللغة المشتركة التي يتم بها التفاهم على المستوى العام لاقاليم القطر الواحد** ، ولاقطار الوطن العربي كله على اختلاف لهجاته . ومن ثم تحيا الفصحى متحدية كل ذرائع الغزو بفضل هذا القرءان الذي اعطانا لساننا المشترك وضمن وحدتنا اللغوية .

وفى رايي ، ان من اجدى ما يقوم به مكتب تنسيق التعريب بالرباط ، الدعوة الى **تاليف لجان فى كل قطر عربي** ، تعكف على استخلاص الالفاظ الفصحى التي تدور على السنة الشعب فى كل لهجة محلية ، **وتكون هذه الالفاظ من فصحى العامية ، هي اساس التعليم فى حركة التعريب وفى مراحل المدرسة الابتدائية** ، بدلا من الالفاظ المعجمية المماتة . ولندرك أن الالفاظ الفصحى التي فى اللهجات العامية، ليست دنسا. ولنكف عن تصور انها ابتذلت بجريانها على السنة الجماهير ، فالواقع انها اخذت بذلك شهادة من الحياة ، بصلاحيتها للبقاء .

وقد حدث مرة ان امتحان بعض المدرسين المرشحين للاعارة لتدريس العربية فى الاقطار الشقيقة، ان كتبت موضوعا انشائيا بفصحى العامية ، وطلبت الى عدد من المدرسين ان يصححوه ، فاستبعدوا منه عشرات من الالفاظ ، وهي فصيحة وقرآنية ، واستبدلوها بالفاظ اخرى دونها فصاحة ، وكانهم حسبوا ان كل ما يجري على السنة العوام ، قد خرج نهائيا من اللغة العربية ! وهذه هي الماساة التي ارجو ان يواجهها مكتب تنسيق التعريب بما يضع حدا حاسما لها .

5) مكانة العربية بين اللغات الاجنبية

والمكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية في اي بلد من وطننا العربي بالنسبة الى اللغات الاجنبية، لا يجوز فى رايي ان تكون موضع خلاف ، فالامر امر وجود ومصير لهذه الامة ، وانما الذي ينبغي ان يتجه اليه النظر ، هو مقاومة اثر طغيان المترجمات التي تنشرها فينا مؤسسات للغزو الفكري فاحشة الثراء ، فتروج للبضاعة الوافدة بما تسخو فى الانفاق عليها وتدق لها طبول الدعاية واجراس الاعلان ، على حساب الفكر القومي الذي يجب ان تكفل له الحماية من هذه المنافسة الخطرة، لتظل له المكانة الاولى فى ثقافة الامة.

واعتقد ان **القرءان الكريم يجب ان ياخذ المكانة الاولى فى الدراسات الجامعية** ، لا من حيث هو كتاب شريعة ودين فحسب ، ولكن من حيث هو كتابنا الاكبر الذي يمنحنا ذوق العربية الاصيل وبيانها المعجز ، ويعطينا القيم والمثل التي ترسخ فكرنا القومي وتمده باصول فى الاجتماع والفكر والقضايا الحيوية ، يكون لنا من اصالتها ما يحمي اصالتنا فى دوامة التيارات الوافدة من شرق وغرب .

ونحن مهما تتعدد لهجاتنا المحلية وتتغير فنوننا الشعبية ومذاهبنا الاقتصادية والسياسية ، يبق القرءان الكريم كتابنا المشترك الذي نلتقي عنده . وانفراد القرءان بهذا الدور القيادي الخطير الجليل فى تاصيل وحدة شعوب الوطن العربي وتقرير مصيرها وضمان تفاهمها المشترك والتقائها الفكري ، هو الذي يجلو الاهمية القصوى لجدوى المحاولة فى اعطائه المنزلة الاولى فى مدارسنا وجامعاتنا .